الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العـــراق بين القفـــص والـــزنـــزانـــة

الطائر العراقي كغيره من الطيور، وإن امتاز عنها ففي ما يشبه النزق في اندفاعاته، صبراً أو جزعاً، حباً أو كرهاً، سلاماً أو عنفاً، ذاكرة أو حلماً.. وعندما تشكّلت الدولة الوطنية في العراق تحت الاحتلال الإنكليزي على احتمال الاستقلال، النسبي أو الشكلي، كان الطائر العراقي يشعر بحاجة إلى القفص، على أن يكون في نسيجه مقدار من أعواد القصب والبردى العراقي، وعندما صنع له قفصه، دولته، لم يدقق كثيراً في المواد التي بنيت منها، ولكنه توقع، وهو العازم على الإذعان، أن يكون له أمام باب القفص، مساحة للحرية يستمتع بها، ويدخل إذا ما اضطر أو اضطرت دولته إلى القفص.. ولكنه فوجئ بأن مساحة الحرية ضئيلة جداً، وعلى ضآلتها لم تكن متاحة إلاّ لحفنة من الذين تتوارثهم العهود من الاستعمار إلى الاستقلال.. هذا لم يمنع أن تنمو مساحة الحرية في العهد الملكي ببطء شديد، ولكنها كانت تنمو وتتسع، ولو بقيت سائرة على وتيرتها، لكانت قد أرضت طموحه إلى حدّ ما ومنحته أملاً بالمزيد من الحرية والنمو والعمران الخ. إلى أن كانت الثورة، فحطمت القفص وألغت مساحة الحرية معاً.. أو قلّصت مساحة الحرية الشعبية ووسّعت مساحة حرية السلطة وجماعاتها المتناحرة.

هاني فحص

وهكذا بدا بعد الثورة، وكأنما القفص قد أصبح زنزانةً، ولكنها تقدمية، ثورية، أممية مرةً، وقومية مرةً أخرى، إلى أن انتهت زنزانة بعثية خالصة.
أصبح الشعب العراقي، كل طيور العراق في زنزانة، حتى حزب البعث، فضلاً عن الأحزاب الحليفة في الجبهة الوطنية لصاحبها حزب البعث... وبعد طقوس القتل الجماعي المتكرّرة، كان على العراقيين أن يدفعوا من زنزانتهم ثمن النزوات من حرب الخليج الأولى إلى الثانية.. إلى الحصار، مروراً بالسلاح الكيماوي.
وكان الأميركي في كل الحالات عدواً حميماً أو صديقاً لدوداً للسلطة وصاحبها الحصري صدام حسين، إلى أن قرّر الأميركي أن يضع حداً لهذا الالتباس الباهظ الثمن على العراق ومن حوله وما حوله.. فتراجعت نسبة الصداقة اللدودة، لصالح العداوة اللدودة، فكان الاحتلال... حطموا القفص.. فخرج الطائر العراقي إلى فضاء من الحرية لا حدود له... ومن اللاحدود هذه جاءت المقاومة التي انكشفت عن إرهاب، إلاّ في أقل القليل من ممارساتها...
وهكذا، وعلى إيقاع الإرهاب والقتل الجماعي المتجدّد من قبل بقايا السلطة، وما ضخ إلى العراق عبر الحدود من نفايات بشرية إجرامية تخرجت من المدرسة الأميركية في أفغانستان.. بدأ أبناء القفص الجديد . الدولة.
وما زال متعثراً لأسباب تتصل بأهل الدولة وجيرانهم وأبناء عمومتهم ومساعديهم من الأميركيين الذين يتأخرون كثيراً في فهم الدروس واستنباط العبر.
هذا من دون أن يكون هذا الكلام يصدر عن يأس من مستقبل العراق، الذي يمكن أن نكون مرعوبين منه وعليه، ولكن تبقى حاله أقل بعثاً على القلق العميق والبعيد المدى من أحوال كل البلاد العربية، وإن كانت أسباب القلق المباشر فيه أكثر مما هي في غيره... والأهم من كل المآسي والإعاقات التي تعتري المسار العراقي، فإن هناك مسلمة لا بد من الوقوف عليها وعندها، وهي درجة من الصعوبة وحاجة إلى صبر طويل طول الصبر على إلغاء العراق ومصادرته.. وهذا التفاؤل يصبح تفريطاً بالعراق إن لم يصاحبه حذر دون اليأس، وحكمة أعلى مما هو متوفر في المشهد العراقي فعلاً.. هذا العراق هو كغيره من بلاد الدنيا فهو أقاليم منها شبه القاري حراً وقراً، ومنها الصحراوي اللاذع حراً وقراً، منها الجبال الشاهقة ومنها المنبسطات الشاسعة، منها الحواضر الباذخة عمراناً وتاريخاً وحيوية، ومنها الأهوار أجمل ما في الدنيا من البدائيات المتأنسة، والعراق اثنيات تجمعها العراقية مرّة والإسلام مرّة، ومذاهب تجمعها العربية مرّة والإسلام مرة... فيها من ينسبون إلى الرحمن ومن ينسبون إلى الشيطان وبينهما.. بشر.. عراقيون حتى النخاع، لا يختزلون بجماعاتهم فقط، وإن كانت شروط الجماعة داخلة في نسيج فرادتهم.
في العراق بداوة... بدوي خائف، فإن لم تقدر سبب خوفه وتتعامل معه بحكمة وحذر، أصبح مخيفاً، عيناه تلمعان بما يحتمل أن يكون أو يصبح ذكاء حاداً إذا ما وضع في ظروف ملائمة.. أما إذا لم تحسن التعامل مع هذا الذكاء الكامن أو المحتمل فإنه يتحول إلى نقيضه، يصبح غباء.. ما ارتكبه النظام البائد هو أنه وضع هذا الذكاء في سياق أدّى إلى منع تحوله الإيجابي وانتهى إلى تكثيفه.
البدوي العراقي، ابن البادية، جاهز للقتال معك وإلى جانبك من أجل الوطن ومن دون تردّد، ولكن بحساب معين، فإذا لم توفه أجره سريعاً شرع في استيفائه منك عنوة وسلفاً، وقد يستوفيه من غيرك إذا ما مر بطريقه عليه... وعندما كان يقاتل المحتل الإنكليزي، لم يكن عنده مانع، إذا ما أحسّ بأن هزيمتك راجحة، أن يهجرك سريعاً وقد يقتلك أو ينحاز إلى صف العدو ويعمل معه إلى أن تتبدل الظروف وموازين القوى.
حريص على القيم وأنماط العلائق الموروثة، ولكن في داخله استعداداً للانقلاب عليها في ليل وهو خائف دوماً من البدوي الآخر.. وهذا ما دفعه إلى مسلك التحضر الضروري والتدريجي، ووجدت كثير من القبائل أمانها، إلى ضرورات عيشها الذي خربته التعسفات التقدمية في الإصلاح الزراعي والاشتراكية الأمية (مقابل الأممية).. وجدت أمانها في التحضّر، فجاءت إلى القرى والمدن، ولكن السلطات الغاشمة همّشتها، حوّلت أحياء المدن الخلفية إلى مضارب فقر وفوضى.. ثمّ لم تلبث هذه السلطات أن اكتشفت حاجتها إلى إعادة المتحضر من القبائل إلى بداوته، إلى السالب من هذه البداوة، وداخل المدينة، لتستعين بها من خلال استتباعها، على توطيد سلطانها، وإن كانت تعلم أن ذلك سيكون مقدمة لانقلاب القبيلة على السلطة عندما تبدو علامات الوهن في مفاصلها... إن توطيد السلطة من أهل السلطة، لزمن ما.. يستدعي أن يبقى البدوي بدوياً مع ربطة عنق أو من دونها...
في لحظة من تاريخ حزب البعث الصدامي، بدا أن السلطة قد نجحت نجاحاً كاملاً، عندما جعلت البداوة المتخففة من كثير من علامات التحضر أو إغراءاته، نعتاً عراقياً شاملاً، من الحزب إلى الجامعة إلى المدرسة إلى الرياضة والفن والأدب والسياسة. وإن بقيت مساحات واسعة أو ضيّقة من البداوة المتحضّرة شكلاً ومضموناً ومن دون قطيعة مع الإيجابي من القيم الموروثة، متحصنة، بالممانعة والمكابرة أحياناً، في موقعها العصري والوطني الذي اختارته، على الرغم من الخسائر الفادحة التي ترتّبت على اختيارها هذا.. وأثبت البدوي الجديد المتجدّد والمجدّد، أنه عندما يحرر يبدع بلا حدود، فإذا ما صودرت حريته التي أتيحت له، تشبّث بها.. أي حرر ذاته فأبدع أكثر.

العراقي صعب كالقصيدة التي خرج بدر شاكر السياب ليكتبها في ليلة مقمرة إلى بساتين النخيل في جيكور، وعندما عاد إلى بيته الطيني، كانت عمته في انتظاره على المصطبة أمام المنزل

ومن هنا تنتمي أكثر إبداعات العراق إلى القادمين من أقاليم العراق المهمشة، والتي ما زال المخزون الحضاري القديم يشتغل في داخل بنيتها ويبحث عن فرص للتعبير عن غناه وحضوره الدائم... ما يلزمنا بالبحث عن جذور المواطن العراقي الحضري في المتراكم الظاهر والخفي في ذاكرته الثقافية..
وهذا العراق، كان ملتقى هجرات حضارية منذ فجر التاريخ.. فعراق البابليين ضاق ذرعاً بلفح الهجير صيفاً ولسع الزمهرير شتاء، فأدت به ثقافته وحاجته إلى اختراع الآجر الذي انتشر من العراق إلى الدنيا وما زال حتى الآن، الوسيلة العمرانية الأمثل لتلطيف المباني من داخلها.. على جماله الذي يتنوّع بتنوع ألوانه وأحجامه.. وهل كان يمكن لهذه الخطوة الحضارية أن تتم لولا أن هناك ثقافة عميقة، ملتزمة وملزمة ومؤنسنة؟ وهل هناك أكثر أنسنة من القوانين والشرائع؟ وهل هناك قوانين وشرائع تأتي من فراغ فكري؟إذن فشرائع حمورابي موصولة بخلفية ثقافية وفلسفية عميقة... من أين أتت؟ الوثائق تقول إن العراق البابلي كان في حالة من العولمة المتقدمة جداً، أقوام وشعوب ولغات وثقافات متعددة، متباينة، جمعها العراق ووحدها... واخترع لها قانوناً ليحميها ويضبطها ويضعها في سياق مضمون ومجد على أساس الحرية تحت سقف القانون..
من هنا، في رأي كثير من المؤرخين، كان اندماج السبي اليهودي بالحالة العراقية، ما جعل أجمل ما في التوراة من نصوص إنتاجاً بابلياً . نشيد الأناشيد . المزامير . وبعض الرؤى الخ.
يقول أدونيس: (ينبغي أن أسافر، أن أستريح في جنة الرماد، بين أشجارها الخفية، في الرماد الخواتيم الماس والجزة الذهبية).
ومن هنا جاء قلق المتنبي، إكسير الإبداع الذي يتألق في الشراكة وبها:
(مكلف بفضاء الله أذرعه على قلق كأن الريح تحتي).
بالهجرات المتواترة والمتصلة والمتعددة المصادر والأسباب تكون العراق ذاتاً وموضوعاً، والتقت أنساله وسلالاته على الحزن والفجيعة والشعر الجريح والنغم الجريح والحنجرة المجروحة والوتر الجارح وكأنه ضماد للجراح... كيان ناجز من النوستالجيا المتحدرة من ماض متراكم بعمق وخفاء لا يلبث أن يبلغ غاية الظهور.
من هنا مثلاً كربلاء في تكوين العراقي، من أقاصي كردستان، إلى البصرة، مروراً بسامراء والخالص والموصل وحتى الأنبار... هي تكوين في تكوين العراقي سنياً أو شيعياً أو آشورياً أو كلدانياً أو صابئياً أو آيزيدياً، تكوين داخل على تكوين مشترك فلم يعان غربة داخل خصوصيات الجماعات المكوّنة عراقياً والمكوّنة.
ولأنّ العراقي مهاجر في الماضي والماضي مهاجر فيه، لم تستطع دولته أن تحتضنه فاختزلته وقمعته من دون أن تستطيع تقطيع ذاكرته، وإن كانت قد قطعته داخل الوطن وخارجه، فقد جعلته مهاجراً داخل الوطن وخارجه، فازدادت مكوناته المشتركة عمقاً ووجعاً يشبه الفرح، أو فرحاً يشبه الوجع... مهاجر متوتر في كرمه وشحه وحبه وبغضه وحزنه ووده، وقتله وموته وحياته وصداقته وعداوته... وأصدقائه وأعدائه... والمرأة والطفل مثلاً، ركنان في عمارة وجدانه ونسق حياته... ولكنه إذا ما استفز هدم العمارة على رأسه... وأحياناً تراه وكأنه منقسم إلى اثنين، واحد لا يقرأ ولا يكتب، ولا يصغي ويختار من تاريخه ما يلائمه ويعيش له وعليه، ويبتغي الحكمة بسلاح الفطرة فيحسنها أو يتحول إلى عبء ثقيل على الحكماء.. وأحياناً كثيرة يفلت من صفوف هذا القسم نماذج من البشر فيها شيء من الإعجاز... فهذا الحانوتي في سوق الشيوخ... اخترع لنفسه في حانوته المتواضع طريقة في الحساب وفي الكتابة... فاستخدم أسلاكاً معدنية خفيفة لكتابة أسماء مدينيه ودائنيه وأرقام الديون... وطور ذلك إلى كتابة الشعر الذي يخترعه أو يحفظه بالأسلاك... وتلك بدوية خبازة اعترضت على موشح الحبوبي الذي يقول فيه:
(اسقني كأساً وخذ كأساً إليك فلذيذ العيش أن نشتركا).
وقالت للميعة عباس عمارة إن هذا الشاعر لا يعرف الحب ولا الخمر ولو كان يعرف لما قدّم نفسه على الحبيب بل قال:
(اشرب الكأس والثاني له ولذيذ العيش لو نشرب سويه).
أما القسم الثاني فيقرأ ويكتب ويصغي ويحفظ ويروي ويصلي ويصوم ويشرب ويهذي ويتقيأ بينهم... وفي لحظة تلتقي كل هذه الأبعاد في واحد، أو تلتقي كل هذه الأنواع في حالة واحدة، تثبت لك ما لم يستطع الماركسيون العرب أن يفهموه بعمق ؟وحدة وصراع المتناقضات؟ بينما فهمه ارنست فيشر فهماً أبدع من فهم كارل ماركس.. هذا العراقي قد يكون ثملاً محلولة عقدة لسانه إقذاعاً سياسياً في حق السلطة بجعلك تتحسس رأسك، فإذا لاحظ أن أحداً يهم بالنيل من عمامتك أو صلاتك أو ناموسك تصدى له وكسر خشمه، وإن كان مسؤوله في خليته الشيوعية، وقد قتل الشيوعي رفيقه الشيوعي في الكوفة عندما نال من السيدة الزهراء... ويأتي الشيعي من بيته الشيعي والسني من بيته السني يتحاوران أو يتساجلان في البيت العراقي، في المقهى أو المضيف أو المأتم أو العرس أو الندوة، يفككان العصبية من دون خروج من العصبة... فإذا ما تدخلت السلطة بينهما كفّا عن السجال والحوار وبكيا أو شتما أو هتفا معاً ودخلا إلى السجن وإلى القبر معاً.
ولا تجد أحداً في العراق يحدثك عن فتنة طائفية، ومن يحدث عنها لا تراه ولا تحدثه، أو يحدثك ان رآك أو رأيته، لأن جبتك عمامتك السوداء تبعده عنك، إن كان سنياً متعصباً، أما اذا كان شيعياً متعصباً فان صفة الاعتدال والوسطية التي تلازمك تمنعه من الإفضاء لك بمكنون يعرف أنك تعافه... كل الفتن كانت بين السلطة والشيعة من جهة والشيعة والسنة والمسيحيين الخ من جهة أخرى.
والعراقي الحضري موصول بالصحراء، بالمدى المفتوح، فإذا ما أغلق كان النخيل هو الحاجز الذي لا يحجز بل يفتحك البستان على البستان وتفتحك الخضرة السامقة على الرمال متشابكة مع أشعة الشمس ترسل ضوءاً ذهبياً يأخذك إلى الأهوار التي تضيع فيها العصافير أعشاشها والأمهات أطفالهن لشدة التشابه بين الأشياء، بين الشريعة ووجوه الغاسلات، بين البردى ونياط القلب، بين سمكة الحمري وعصفور الدوري، بين الجاموسة والشرطي، بين رطب البرجي وزهر الرازقي... يتواصل ويتصل الحضر بالبادية، والحضري بالمعيدي، ويمتلئ بالماضي، الذي تجبره دمامة حاضره وصعوبة مستقبله على العودة الدائمة إليه، وكأن مثاله وراء ظهره، لذلك فهو يمشي إلى الغد وعيناه أو قلبه إلى الخلف.
(ومد خفيت عني الطلول تلفت القلب).
والعراقي صعب كالقصيدة التي خرج بدر شاكر السياب ليكتبها في ليلة مقمرة إلى بساتين النخيل في جيكور، وعندما عاد إلى بيته الطيني، كانت عمته في انتظاره على المصطبة أمام المنزل فسألته: ها بدر كتبتها؟ فصاح بها: أكتب النخيل إن عصتني القوافي... وتناول طاسة من ماء (الحب) ونام فلم ينم... وولدت القصيدة مع آذان الفجر وصوت العقعق يغازل أنثاه بلغة (جلفة)...
وعندما يطمئن هذا الصعب إلى قلبك نواياك يتصرف معك وكأنه حمل أو بلبل نخل أو حمامة فخاتي أو طين قوية وجميلة وعذبة ملمساً وهديلاً... واضح شديد الوضوح كالنصوص المحكمة أو شعر الرصافي، وفي لحظة يصبح أحجية غامضة حامضة، كمعنى المعنى في حشيات مظفر أو اعتراضيات الجواهري.
وتشعر بأنك أمام لغم عما قليل ينفجر... وقد ينفجر حباً أو بكاء أو غضباً أو إحساساً بالثكل لأنه لتوه قد أحيط علماً بأن منزله قد هدم وأن أخاه قد قتل على باب المنزل وأن أمه قد اعتقلت لأنهم لم يدلوا بالمعلومات المطلوبة عن مكان وجوده.
العراقي الحضري مزدوج، اثنان في واحد، أو واحد في اثنين، أو ثلاثة أو أربعة، فالصحراء تناديه وهو يفهم نداءها، والمدينة تغريه وتغويه وتدعوه إلى الوداع مع الجوع والبرد والجفاف والعرق والعطش والبعوض واليربوع والخوف من كل شبح أو غيمة وشجيرات العاقول والحنظل والسباخ... والمدينة فيها خبز أكثر وأيسر ولكنه مر وربما أعوزته الكرامة، وفيها معرفة يطمئن لها العقل ويزداد معها القلق، وفيها أجهزة أمنية، إما أن تكون شريكها أو قتيلها... إلى ذلك فهو موزع بين عراقيته وقوميته وثنائيات لا تعد ولا تحصى.
لا شيء في الملموس والمادي يساعد العراقي على أن يكون صامداً، فهو مستهدف بسبب ثرواته وموقع العراق وتاريخه وحيويته وتعدديته النازعة إلى وحدة راسخة على وطن ودولة جامعة... وهو مكشوف جغرافياً وبيئياً وعمرانياً... فالبيوت العراقية في البادية تطير مع رياح الخماسين، ولا تزيد في قدرتها على المقاومة كثيراً على الخيمة... وأكثر أبنية القادمين إلى المدينة من الأطراف أو البوادي مبنية من الآجر الخفيف... وهو، أي الريفي حائر إلى حد الشعور بالاضطهاد بين قيمه وأحلامه من جهة، وبين الوقائع التي تزيده إحباطاً ويأساً وبؤساً من جهة ثانية.
لا يأتي صموده في مواجهة الأخطار ومصادرها المحلية والخارجية الصديقة والعدوة، من الأقربين إلى الأبعدين، من عرب ومسلمين، إلا من المباشر، من خوفه على جسده وبيته وأطفاله وأمه وأبيه وخالاته وعماته وبناتهن وأحفادهن... ومن البعيد الموغل في تكوينه خارج المشهد، من هجرته العتيقة، ومن إيمانه الفطري، وخوفه من أن ينتصر عليه ظالم يقتله مرة أخرى، كما قتله كل المنتصرين به ثم عادوا ليقتلوه بانتصارهم، وفي الهزائم كان مقتولاً دائماً ومحملاً لمسؤوليتها... صموده يأتي من داخله... من المشهد المرتسم أو المرسوم أمامه... لا من وعي النخبة الحقيقي أو المزيف.
والنصر هو نصر الحاكم، إلى ذلك فإنه تواب، يسيطر عليه الحسين وخذلانه له بعد أن دعاه إليه، ودعا الحسين عليه، فهو يريد أن يكون أهلاً للنجاة من مفعول الدعاء... لذلك فهو يزور الحسين مشياً على الأقدام وبين الألغام والمتفجرات الرجالية والنسائية آخر طبعة من كتاب الثقافة الإرهابية... ويقاتل... كان أهل بغداد يقدسون مدفع (طوب أبو خزامة) في عهد مراد باشا ويتبركون به، لأنه أبلى بلاء حسناً في تدمير مدينتهم وقتل أهلها!
لا مجال طبعاً لنسيان الكردي الكريم اللطيف البسيط أحياناً بما تعني البساطة من شفافية يظنها بعض البغداديين وغيرهم من أهل المدن بلهاً، كما هي حال الشروقي لدى بغداد وغيرها من الحواضر، حتى النجف، ليتبين في النهاية أن الأبله هو الآخر الذي يظن الآخرين بلهاء. ولكن الكردي لا يرى أمامه ووراءه . كان كذلك . إلاّ الإملاءات من تغيير اسمه وعقله ودمه إلى تغيير مسقط رأسه (إبادة ٤٥٠٠ قرية بالكامل وتهجير من تبقى من شظايا أهلها إلى الوسط والجنوب)... إلى تغيير قوميته، حتى إذا ما صار قحطانياً أو عدنانياً بالإكراه، وقومياً عربياً بالتبعيث، نقلوه من مساقط الثلج إلى مسافي الريح في الصحراء... ماذا أصنع له؟ ماذا صنعت له؟ ولا تسلني عن التركماني الذي لم يحمه إلحاحه على اللغة الغربية من إعادته إلى سلالته محاصراً حتى آخر نفس... والآشوري خوشابا الراغب بالاندماج إلى حد أنه أراد مرةً أن يجاملني فقال: لا إله إلا الله صلى الله عليه وآله... إلى رئيس أساقفة الموصل الشهيد بولس فرج رحو الذي قتل لسبب واحد وهو أنه عراقي من الأزل والى الأبد.
اقرأوا التاريخ لتروا كم مرةً خربت بغداد وقتل أهلها؟ لم يبق شاه صفوي أو عثماني أو قاجاري أو سلجوقي أو مغولي أو عربي أو انكليزي إلا وهدم بغداد أو غيرها من المدن العراقية وأفنى أهلها... هذا فضلاً عن المجاعات والجفاف والطاعون وغيرها... منتصف القرن ١٩ الميلادي، كان عدد سكان العراق لا يزيد عن مليون وربع مليون نسمة... أي ربع سكان بغداد في عهود ازدهارها.
ارحموا العراقيين... لا تمدحوهم ولا تسبوهم، حلوا عنهم... هذا عراق يزخر بأسباب الحياة... ولكنه ليس مسرحاً للموت... ولنر إن مات العراق كيف نحيا؟

العراق، كان ملتقى هجرات حضارية منذ فجر التاريخ.. فعراق البابليين ضاق ذرعاً بلفح الهجير صيفاً ولسع الزمهرير شتاء، فأدّت به ثقافته وحاجته إلى اختراع الآجر الذي انتشر من العراق إلى الدنيا وما زال حتى الآن، الوسيلة العمرانية الأمثل لتلطيف المباني من داخلها..

بين البردى ونياط القلب، بين سمكة الحمري وعصفور الدوري، بين الجاموسة والشرطي، بين رطب البرجي وزهر الرازقي... يتواصل ويتصل الحضر بالبادية، والحضري بالمعيدي، ويمتلئ بالماضي، الذي تجبره دمامة حاضره وصعوبة مستقبله على العودة الدائمة إليه.